الفايكنج

الفايكنج تعنى القرصان فى اللغات الإسكندنافية القديمة ، وهى كلمة أطلقت على قوم اشتهروا بركوب البحر والقرصنة ، وقد ظهروا وسيطروا على شمالى أوربا فى القرون الوسطى ، كما أنهم جالوا فى المحيط الأطلسى ، وعاشوا بالتحديد فى بلاد إسكندينافيا (السويد ، النرويج ، الدنمارك) ومن هناك غزوا أجزاء من إنجلترا وفرنسا وألمانيا وأيرلندا وإيطاليا وروسيا وأسبانيا ، ووصلت سفنهم حتى جزيرتى جرينلاند وأيسلندا وتسمى هذه الفترة التى امتدت من (٧٩٣ – ١٠٦٦م) بحقبة الفايكنج .

كان سبب خروجهم من إسكندينافيا الزيادة المطردة فى السكان التى شهدتها تلك البلاد ، والتى قلت على أثرها الأراضى الزراعية ، وساعدهم على التجوال فى البحار التطور الذى طرأ على صناعة السفن هناك .

ينحدر الفايكنج من قوم جرمانيين عاشوا فى شمال غربى أوربا ، ثم تحولوا إلى بلاد إسكندينافيا حيث بقوا فى مجموعات صغيرة لكل مجموعة ملك أو سيد يحكمها ، وانقسم مجتمعهم إلى ثلاث طبقات ، الطبقة الأولى طبقة النبلاء وهم الملوك والأسياد والأثرياء ، والطبقة الثانية الأحرار وهم الزراع والتجار وموظفو الدولة ، والطبقة الثالثة والأخيرة هى طبقة العبيد ، وهم إما أرقاء

بالميلاد أو أسرى حرب ... يحكم كل مجموعة من الفايكنج مجلس من النبلاء له حق إصدار القوانين ومعاقبة المجرمين ، وإعلان الحرب ، وهو شبيه بالبرلمان الحديث إذ أن قراراته نافذة وأهم من قرارات الملك ... وعمل معظم الفايكنج بالزراعة وتربية الماشية ، كما عمل بعضهم بصيد السمك أو ببناء السفن ، وبعضهم الآخر بالتجارة ، وهؤلاء هم الذين جابوا البحار طلباً للتجارة ... والرجل هو السيد فى العائلة التى تمتعت فيها المرأة بحقوق كثيرة ، منها حق الطلاق ، وقد اعتاد أثرياء الفايكنج الزواج بأكثر من واحدة ، حيث توالدوا وتكاثرت أعدادهم الأمر الذى أدى إلى زيادة ملحوظة فى السكان نتج عنها خروج الفايكنج من بلاد إسكندينافيا إلى العالم الخارجى ... ودفن الفايكنج موتاهم فى سفن اعتقاداً منهم أنها ستأخذهم إلى أرض الأموات ، كما دفنوا مع الميت حاجياته ، بما فيها كلابه ، وعبيده أحياناً ، وقد كان للفايكنج معبودات عديدة منها " أودين " إله الحرب والموت ، و " فراى " إله الزرع والحب ، و"ثور" إله السماء والضوء والمطر والرعد والرياح وهو المسيطر على المناخ.

كان الفايكنج من أمهر بناة السفن إذ أنهم حسنوا من بنائها ، وشكلها ، وبنوا السفن التجارية والبحرية ، وطوعوها لتكون صالحة للإبحار معتمدين فى ذلك على الأشرعة والرياح ، ولسفنهم شكلها المميز، فهى ذات مقدمة مقوسة ، كما أنهم عرفوا طرقاً خاصة بهم لمعرفة الاتجاه فى البحر ، فمثلاً استعانوا بالغربان لمعرفة اتجاه اليابسة .

كان الفايكنج غلاظاً قساة فى حروبهم ، أثاروا الرعب فى أوربا ، فكانوا يحرقون كل ما لم يأخذوه ، أو ينهبوه ، وكانوا فى حروبهم شديدى الحرص على الاستيلاء على الخيول ، ثم الماشية ، وكذلك الأشياء الثمينة المصنوعة من الذهب والفضة ، وهى غالباً ما توجد فى الكنائس والأديرة ، وهذا يفسر لنا غزوهم المستمر لتلك الكنائس والأديرة فى أيرلندا وإسكتلندا وفى غيرها من

البلدان ، وقد اتصفت حروبهم وغزواتهم تلك بالسرعة وعنصر المفاجأة تساعدهم فى ذلك خفة سفنهم وسرعتها .

وقد تعرضت شواطئ إنجلترا الشرقية ، وأيرلندا وإسكتلندا لغزوات الفايكنج النرويجيين خلال القرنين الثامن والتاسع الميلاديين ، كما أنهم غزوا ونهبوا أجزاء من فرنسا وإيطاليا وأسبانيا ووصلوا حتى أيسلندا وجرينلاند ، بل إنهم وصلوا إلى أمريكا حيث استقروا لفترة من الزمن على شاطئها الشرقى ، كما دلت على ذلك آثارهم الباقية هناك ، أما الفايكنج الدنماركيون فقد ركزوا هجومهم على بلجيكا وفرنسا ، والأراضى المنخفضة (هولندا) ، وإنجلترا واستقروا فى شرقى إنجلترا حتى اضطرهم الملك الإنجليزى ألفريد الأكبر للانسحاب من هناك .

وعلى الرغم من سمعة الفايكنج السيئة وطبيعتهم الوثنية الوحشية ، تحول الفايكنج خلال قرن أو اثنين من الزمان إلى المسيحية واستقروا فى الأراضى التى هاجموها مسبقاً ، وفى نفس الوقت بنى الفايكنج مستوطنات جديدة فى أيسلندا ، وجرينلاند ، وأمريكا الشمالية ، والأطلسى الشمالى ، إضافة إلى تأسيس ممالك فى شبه الجزيرة الإسكندنافية على طول الحدود مع الممالك الأوربية فى الجنوب ... ونتيجة لاندماجهم فى أراضيهم الجديدة أصبح منهم المزارعين والتجار إضافة إلى الحكام والمحاربين .

أدى وجود الفايكنج فى ثلاثة مواقع فى إسكندينافيا إلى ظهور شعوب هناك ، هم الدنماركيون ، والنرويجيون ، والسويديون ، كما أن هجماتهم المستمرة على إنجلترا أدت إلى توحيدها .

هل ستختفى شلالات نياجرا ؟

قد يظن البعض أن شلالات نياجرا هى أعلى شلالات فى العالم ... ولكن الحقيقة غير ذلك ، إذ يفوقها فى هذا أكثر من خمسين شلالاً آخر ، وأقرب مثل على ذلك شلالات " يوسيمنى " بكاليفورنيا التى يزيد ارتفاعها ثمانى مرات على ارتفاع شلالات نياجرا ، ولكن هذه الشلالات الأخيرة أكثر شلالات العالم ماءً وأعرضها ، بالإضافة إلى كونها عالية إلى حد ما ، إذ يبلغ ارتفاعها ١٦٥ قدماً .

وتقع هذه الشلالات فى نهر نياجرا الذى يصل بين كندا والولايات المتحدة ويصل بين بحيرتى " ايرى " و " اونتاريو " ، ويسهل الوصول إليها بعكس معظم شلالات العالم ، ولذلك يزورها مئات الآلاف من السياح سنوياً ويتمتعون بمشاهدة انعكاس ضوء الشمس وألوان الطيف على رذاذ مائها الذى يندفع عالياً فى الفضاء ، وزيارة مغارة الرياح التى تقع فى الصخر خلف جدار الماء الساقط.

وتنقسم شلالات نياجرا قسمين تفصلهما جزيرة "جوت أيلند " ويتبع القسم الشرقى فيها الولايات المتحدة ويبلغ عرضه ١٠٠٠ قدم ، ويسمى الشلالات الأمريكية ، أما القسم الغربى فيتبع كندا ويبلغ عرضه ٢٦٠٠ قدم ويسمى شلالات كندا أو شلالات " هورس شو ".

وقد كانت هذه الشلالات موجودة منذ نحو عشرين ألف سنة ، ولكنها لم تكن منقسمة قسمين ، كما كانت تبعد عن جزيرة جوت أيلند حوالى ثمانية أميال وشيئاً فشيئاً أخذت تقترب من تلك الجزيرة ، ففى خلال العصر الجليدى كان الجليد يغطى سطح القارة الأمريكية ، وكان خط الجليد الدائم يمتد باستمرار إلى الجنوب ثم تأتى فترات ترتفع فيها درجة الحرارة فيتراجع الجليد الذائب إلى الشمال ثم يتقدم ثانية إلى الجنوب وهكذا .

وكان معظم الجليد الذائب يتدفق فيما أصبح الآن وادى نهر المسيسبى ، وأخيراً تراجع الجليد إلى ما دون البحيرات العظمى شمالاً ، وفى أثناء تراجعه حفر أحواض تلك البحيرات وملأها بالماء حتى فاضت ، وأخذ الماء ينحدر من بحيرة " ايرى " إلى بحيرة " اونتاريو " ولكنه وجد جرفاً عالياً فى طريقه فسقط من فوقه ليواصل رحلته فيما أصبح يسمى الآن نهر نياجرا.

ولكن طبقات هذا الجرف كانت شديدة الصلابة فى القمة ، رخوة لينة فى القاع ، وأخذت التيارات التى تنجم عن اصطدام المياه بقاع النهر تعمل على نحت الطبقات اللينة ، وشيئاً فشيئاً أصبحت الطبقات العليا معلقة فبدأت تتكسر وتسقط ، وهكذا أخذ الشلال يتراجع إلى الخلف حتى وصل إلى جزيرة جوت أيلند التى قسمته قسمين وأصبح قسم منهما يتبع الولايات المتحدة والآخر يتبع كندا ، لأن الحدود السياسية بين الدولتين تمر بمجرى نهر عبر الجزيرة التى تقع فى منتصفه.

ويقدر العلماء أن الشلال سيتراجع إلى ما وراء الجزيرة ، ومن ثم يصبح شلالاً واحداً مرة أخرى ، ثم يأخذ فى التراجع إلى أن يصل إلى بحيرة ايرى ويختفى تماماً ، ولكن ذلك سوف يستغرق آلاف السنين لا سيما أن المياه

التى تسقط من الشلال قد أصبحت أقل مما كانت عليه قبل مائة سنة مثلاً ، وهذا يؤدى إلى الإقلال من عملية النحر التى تؤدى إلى تراجع الشلال .

وتستغل المياه المتساقطة من فوق الشـــلال الآن فـــى إدارة توربينـــات ضخمة تولد كميات ضخمة هائلة من الطاقة الكهربائية.

عندما تتوارى عنا الشمس ... ويختفى القمر

لا يعطى القمر ضوءاً بذاته ، وما كان له أن ينير لولا إضاءة الشمس له، حيث يعكس ضوءها الواقع عليه ... ولكن كثيراً ما يقع القمر فى ظل منطقة الأرض – وقد يحدث هذا ثلاث مرات فى العام الواحد أحياناً – فتحجب الأرض ضوء الشمس ويتوقف القمر عن الظهور ، وتعرف هذه الظاهرة " بالخسوف الكلى" ، ويحدث أحياناً أن يكون مرور القمر بحافة ظل الأرض ، وعندئذ لا يظلم إلا جزء منه ويعرف هذا " بالخسوف الجزئى".

ولا يختفى القمر تماماً حتى فى الخسوف الكلى ، إذ يكسر الهواء المحيط بالأرض جزءاً من أشعة الشمس ، ولا يمكن أن يحدث خسوف القمر إلا إذا كان القمر فى الجانب الآخر من الأرض غير المواجه للشمس ، ويكون إذاك بدراً، ولا يمكن أن يقع القمر فى منطقة ظل الأرض فى أى وقت آخر.

وكما أن للقمر خسوفاً فكذلك للشمس كسوف ، ويحدث كسوف الشمس عندما يقع القمر بين الأرض والشمس ، فيحجب منظر الشمس عن جزء من الأرض ، والقمر من الصغر بحيث لا يمكنه أبداً أن يخفى الشمس عن الأرض كلها.

وإذا أخفى القمر قرص الشمس كله عن جزء من الأرض سمى الكسوف

" كسوفاً كلياً " فإذا لم يحجب سوى جزء منه سمى " كسوفاً جزيئاً " ويحدث الكسوف مرتين فى السنة على الأقل ، وقد يصل إلى خمس مرات ، ولكن معظمه ليس سوى كسوف جزئى.

وتقل مدة كسوف الشمس كثيراً عن مدة خسوف القمر ، فبينما يستمر الخسوف الكلى إلى نحو ساعتين لا يتجاوز الكسوف الكلى ثمانى دقائق على الإطلاق ... وفى الكسوف الكلى يختفى قرص الشمس المستدير كله ، ولكن حزم الأشعة المحيطة بالشمس والتى تسمى بالهالة تظل ظاهرة ، وتبقى كذلك ألسنة اللهب الممتدة من الشمس ، ومع ذلك فإن الكثير من الضوء يحتجب حتى تخيم العتمة وكأن الشمس قد غربت ، وغالباً ما تأوى الطيور إلى أعشاشها والحيوانات إلى حظائرها ولكن ما هى إلا دقائق حتى ينجلى " الليل ".

ويمكن أن يرى خسوف القمر من نصف الكرة الأرضية ، ولكن كسوف الشمس لا يمكن رؤيته إلا فى منطقة ضيقة هى التى يقع عليها ظل القمر ، وكثيراً ما يقوم الفلكيون برحلات طويلة ليشاهدوا الكسوف الكلى للشمس ، وهم على استعداد لأن يذهبوا بعيداً فى سبيل ذلك إذ أن كثيراً من المسائل المتعلقة بالشمس والنجوم يمكن دراستها بصورة أكمل خلال فترة الكسوف .

وكان الناس قديماً يفزعهم الخسوف والكسوف ، ولكن اليوم فهم العلماء هذه الظاهرة حتى أنهم يعرفون كل ما سيقع منهما فى سنوات طويلة مقبلة.

ابن زيدون

ولد الشاعر ابن زيدون (١٠٠٣ – ١٠٧١ م) بالرصافة من ضـــواحى قرطبة بالاندلس ، وهى الضاحية التى أنشأها عبد الرحمن الـــداخل ، واتخـــذها متنزهاً ومقراً لحكمه ، ونقل إليها النباتات والأشجار النادرة ، وشق فيها الجداول البديعة حتى صارت مضرب الأمثال ... كان والد بن زيدون من فقهاء قرطبـــة وأعلامها المعدودين ، أما جده لأمه فكان من العلماء البارزين فى عصره .

وما كاد " ابن زيدون " يبلغ الحادية عشرة من عمره حتى فقـــد أبـــاه ، فتولى جده تربيته ، وكان ذا حزم وصرامة ، واهتم الجد بتربية حفيده وتنشـــئته تنشئة صحيحة وتعليمه العربية والقرآن والنحو والشعر والأدب إلى غير ذلـــك من العلوم ، على يد عدد كبير من علماء عصره وأعـــلام الفكـــر والأدب فـــى الأندلس .

كان " ابن زيدون " من الصفوة المرموقة من شباب قرطبة ، ومن ثم فقد كان من الطبيعى أن يشارك فى سير الأحداث التى تمر بها ، وقد ساهم " ابـــن زيدون " بدور رئيسى فى إلغاء الخلافة الأموية بقرطبة ، كما شارك فى تأسيس حكومة جهورية بزعامة " ابن جهور " وإن كان لم يشارك فى ذلـــك بالســـيف

والقتال ، وإنما كان له دور رئيسى فى توجيه السياسة وتحريك الجماهير ، وذلك باعتباره شاعراً ذائع الصيت .

وحظى " ابن زيدون " بمنصب الوزارة فى دولة " ابن جهور " واعتمد عليه الحاكم الجديد فى السفارة بينه وبين الملوك المجاورين ، إلا أن " ابن زيدون " لم يقنع بأن يكون ظلاً للحاكم ، واستغل أعداء الشاعر ومنافسوه هذا الغرور وميله إلى التحرر والتهور فأوغروا عليه صدر صديقه القديم ونجحوا فى الوقيعة بينهما ، حتى انتهت العلاقة بين الشاعر والأمير إلى مصيرها المحتوم .

كان ابن زيدون شاعراً مبدعاً مرهف الإحساس ، وقد حركت هذه الشاعرية فيه زهرة من زهرات البيت الأموى ، وابنة أحد الخلفاء الأمويين وهى " ولادة بنت المستكفى " وكانت شاعرة أديبة ، جميلة ، شريفة الأصل ، عريقة الحسب ، وأثنى عليها كثير من معاصريها من الأدباء والشعراء ، واجمعوا على فصاحتها ونباهتها ، وسرعة بديهتها ، وموهبتها الشعرية الفائقة .

وبعد سقوط الخلافة الأموية فى الأندلس فتحت ولادة أبواب قصرها للأدباء والشعراء والعظماء ، وجعلت منه منتدياً أدبياً ، وصالوناً ثقافياً ، فتهافت على ندوتها الشعراء والوزراء مأخوذين ببيانها الساحر وعلمها الغزير .

وكان " ابن زيدون " واحداً من أبرز الأدباء والشعراء الذين ارتادوا ندوتها ، وتنافسوا فى التودد إليها ، ومنهم " أبو عبد الله بن القلاس " و " أبو عامر بن عبدوس " اللذان كانا من أشد منافسى ابن زيدون فى حبها ، وقد هجاهما " ابن زيدون " بقصائد لاذعة ، فانسحب " ابن القلاس " ولكن " ابن عبدوس " غالى فى التودد إليها ، وأرسل لها برسالة يستميلها إليه ، فلما علم "ابن زيدون" كتب إليه رسالة على لسان " ولادة " وهى المعروفة بالرسالة

الهزلية ، التى سخر منه فيها ، وجعله أضحوكة على كل لسان ، وهو ما أثار حفيظته على " ابن زيدون " فصرف جهده إلى تأليب الأمير عليه حتى سجنه ، وأصبح الطريق خالياً أمام " ابن عبدوس " ليسترد مودة " ولادة ".

وفشلت توسلات " ابن زيدون " ورسائله فى استعطاف الأمير حتى تمكن من الفرار من سجنه إلى " اشبيليه " وكتب إلى ولادة بقصديته النونية الشهيرة التى مطلعها :

اضحى التنائى بديلاً من تدانينا ونأب عن طيب لقيانا تجافينا

وما لبث الأمير أن عفا عنه ، فعاد إلى قرطبة وبالغ فى التودد إلى "ولادة" ولكن العلاقة بينهما لم تعد أبداً إلى سالف ما كانت عليه من قبل ، وإن ظل ابن زيدون يذكرها فى أشعاره ، ويردد اسمها طوال حياته فى قصائده .

ولم تمض بضعة أشهر حتى توفى الأمير ، وتولى ابنه " أبو الوليد بن جهور " صديق الشاعر الحميم ، فبدأت صفحة جديدة من حياة الشاعر ، نعم فيها بالحرية والحظوة والمكانة الرفيعة .

ولكن خصوم الشاعر ومنافسيه لم يكفوا عن ملاحقته بالوشايات والفتن والدسائس حتى اضطر الشاعر – فى النهاية – إلى مغادرة " قرطبة " إلى "اشبيليه" وأحسن " المعتضد بن عباد " إليه وقربه ، وجعله من خواصه وجلسائه، وأكرمه وغمره بحفاوته وبره .

واستطاع " ابن زيدون " بما حباه الله من ذكاء ونبوغ أن يأخذ مكانة بارزة فى بلاط " المعتضد " حتى أصبح المستشار الأول للأمير ، وعهد إليه "المعتضد " بالسفارة بينه وبين أمراء الطوائف وفى الأمور الجليلة والسفارات المهمة ، ثم جعله كبيراً لوزرائه ، ولكن " ابن زيدون " كان يتطلع إلى أن يتقلد

الكتابة وهى من أهم مناصب الدولة وأخطرها ، وظل يسعى للفوز بهذا المنصب ولا يدخر جهداً فى إزاحة كل من يعترض طريقه إليه حتى استطاع أن يظفر بهذا المنصب الجليل ، وأصبح بذلك يجمع فى يديه أهم مناصب الدولة وأخطرها وأصبحت معظم مقاليد الأمور فى يده ، واستمر ذلك لمدة عشرين عاماً.

فلما توفى " المعتضد " تولى الحكم من بعده ابنه " المعتمد بن عباد " وكانت تربطه بابن زيدون أوثق صلات المودة والألفة والصداقة ، وكان مفتوناً به متتلمذاً عليه طوال عشرين عاماً ، وكان بينهما كثير من المطارحات الشعرية العذبة التى تكشف عن ود غامر وصداقة وطيدة .

وحاول أعداء الشاعر ومنافسوه أن يوقعوا بينه وبين الأمير الجديد ، وظنوا أن الفرصة قد سنحت لهم بعدما تولى " المعتمد " العرش خلفاً لأبيه ، فدسوا إليه قصائد يغرونه بالفتك بالشاعر ، ويدعون أنه فرح بموت " المعتضد " ولكن الأمير أدرك المؤامرة فزجرهم وعنفهم.

وكان الشاعر عند ظن أميره به فبذل جهده فى خدمته ، وأخلص له ، فكان خير عون له فى فتح " قرطبة " ثم أرسله المعتمد إلى اشبيلية على رأس جيشه لإخماد الفتنة التى ثارت بها ، وكان " ابن زيدون " قد اصابه المرض وأوهنته الشيخوخة ، فما لبث أن توفى بعد أن أتم مهمته عن عمر بلغ نحو ثمانية وستين عاماً .

انطبع شعر " ابن زيدون " بالجمال والرقة وانعكست آثار الطبيعة الخلابة فى شعره ، فجاء وصفه للطبيعة يفيض بالخيال ، ويفيض بالعاطفة المشبوبة والمشاعر الجياشة ، وامتزج سحر الطبيعة بلوعة الحب وذكريات الهوى ، فكان وصفه مزيجاً عبقرياً من الصور الجميلة والمشاعر الدافقة ومن ذلك قوله :

إنى ذكرتك بالزهـــراء مشتاقاً والأفق طلق ومرأى الأرض قد راقا

وللنســـيم اعتلال فى أصائله كأنـــه رق لـــــى فاعـــتل إشـــفاقاً

أول من فكر فى تخزين مياه النيل عند أسوان

الحسن بن الهيثم ... فعندما كان الحاكم بأمر الله الفاطمى يتولى حكم مصر ، بلغه نبأ تفوق ابن الهيثم كما بلغه قوله " لو كنت بمصر لعملت فى نيلها عملاً يحصل به النفع فى كل حالة من حالاته ، من زيادة ونقص ، فقد بلغنى أنه ينحدر من موضع عال وهو فى طرف القطر المصرى ".

ولم يلبث الحاكم بأمر الله حين سمع بذلك أن بعث إلى هذا العالم طالباً منه القدوم إلى مصر ، ولما جاء عام ١٠١٧ م خرج الحاكم بنفسه لاستقباله خارج القاهرة ، والتقى به فى قرية بالقرب من أحد أبوابها وذلك مبالغة منه فى إكرامه ، ثم طالب ابن الهيثم بتنفيذ مشروعه الذى يريد إنشاءه على النيل ، فأخذ ابن الهيثم معه جماعة من الصناع المختصين بالعمارة ، وسار يتتبع مجرى النيل من القاهرة إلى جنوبى أسوان يدرسه ويعاينه حتى بلغ مكاناً كان يسمى الجنادل – ولعله الشلال – فلم يجده كما بلغه من قبل موضعاً عالياً ينحدر منه النيل على حدود القطر المصرى ، ولم يجده متفقاً مع فكرته الهندسية التى خطرت له .

وعاد إلى القاهرة خجلاً واعتذر للحاكم عن عدم تنفيذ مشروعه الذى كان يهدف إلى إنشاء شئ من قبيل الخزان وبذلك يكون الحسن ابن الهيثم قد

سبق زمانه وفكر فى مشروع تحقق بعد وفاته بأكثر من ثمانية قرون ونصف قرن.

وقد ولاه الحاكم منصباً من مناصب الدولة ولكن ابن الهيثم كان يعلم أن تقدير الخليفة لعلمه قد قل ، وأن ثقته به لم تعد كما كانت ، ورأى أن الوظيفة لا تتيح له التفرغ لأبحاثه ، وخشى بطش الحاكم فادعى الجنون ، وحينذاك عزله الحاكم من منصبه وصادر أمواله وعين عليه من يقوم بخدمته.

ولما توفى الحاكم بأمر الله ، وتأكد ابن الهيثم من الخبر خرج من بيته وانتقل إلى مسكن صغير أمام الجامع الأزهر وعاد إلى ما كان عليه من الانقطاع للعلم والبحث وعاش بعد ذلك أكثر من (١٨ عاماً) ، وفى خلال هذه الفترة ظهر كتابه " المناظر " فى علم البصريات وهو أكبر أعماله العلمية ، وهو الكتاب الذى ظلت أوربا تحاول استيعاب ما فيه لمدة ستة قرون ، حيث أبطل علم المناظر الذى وضعه اليونان وأنشأ علم الضوء الحديث ، ولذلك لقب " برائد علم الضوء " ، حيث استطاع أن يبطل النظرية الشائعة التى تقول بأن العين تبصر عن طريق الأشعة الصادرة من المرئيات نفسها إلى العين التى تأخذ فى تصويرها بواسطة جسمها الشفاف وهو العدسة ، كما قام بعدة تجارب ناجحة لاختبار زوايا السقوط والانعكاس وهو بهذا يسبق " نيوتن " الذى وضع فيما بعد نظريته المعروفة عن انعكاس الضوء ، وقد ذكر " جوزيف هل " أنه يجب أن ينسب لابن الهيثم فضل التفريق بين الظل وشبه الظل ، وتحدث ابن الهيثم عن انكسار الأشعة الضوئية المارة فى الأوساط الشفافة كالهواء والماء وقد اخذه عنه " كبلر " فيما بعد واهتدى ابن الهيثم إلى سرعة الضوء فقد أعلن أن للضوء سرعة تختلف بحسب الوسط الذى يمر خلاله.

كما أن لابن الهيثم أبحاثاً فى علم الطبيعة عن ظواهر الشفق ، وألوان الطيف ، والهالة ، والظل ، والكسوف والخسوف ، وقد وضع رسالة عن المرايا

المحرقة وابتكر مرآة تفوق كثيراً مرايا الإغريق ، كما أدلى فى هـذه الرسـالة بآراء دقيقة عن طبيعة البؤرة والتكبير والانقلاب الموضعى للصورة ، كما فسر ظاهرة السراب ورؤية الشمس قبيل الشروق وبعد الغروب . كما أن لابن الهيثم أبحاثاً فى الرياضيات والفلك والطب والتشريح وخاصة تشريح العين.

عمر الخيام

ولد فى نيسابور بإيران وعاش بين عامى (١٠٤٠م – ١١٣١م) ، وكان والده يحترف صنع الخيام وبيعها ، لذا اشتهر بالخيام ... وفى نيسابور تلقى علومه الأولى وكانت آنذاك حافلة بأهل العلم وأعلام الأدب ، وفيها تخرج عدد كبير من أئمة العلم والفلاسفة والأدباء والفلكيين والفقهاء ، ثم تنقل كثيراً فى طلب العلم حتى استقر فى بغداد .

عرف الخيام بشعره الفلسفى الصوفى الذى يتمتع بجمال وقوة معانيه ، وقد فسر البعض هذه الفلسفة على أنها إلحاد وزندقة فأحرقت كتبه مما دفعه إلى السفر إلى الحجاز لأداء فريضة الحج ، ولم يصلنا منها سوى " الرباعيات " الشهيرة ، غير أن الخيام كان عالماً عبقرياً ومبدعاً أكثر بكثير من كونه شاعراً، وقد حرم ضياع كتبه الإنسانية من الاستفادة منها ... ولم يفكر أحد ممن عاصره فى جمع الرباعيات ، فكان أول ظهور لها بعد ترجمتها إلى الإنجليزية عام ١٨٥٩م ، أما الترجمة العربية من الفارسية فقام بها الشاعر الكبير أحمد رامى ، وشدت بعضاً من أبياتها أم كلثوم .

رغم شهرة الخيام بكونه شاعراً فقد كان من علماء الرياضيات فى عصره ، واشتهر بالجبر واشتغل فى تحديد التقويم السنوى للسلطان ملكشاه ،

والذى صار التقويم الفارسى المتبع إلى اليوم ، وهو أول من اختـرع طريقـة حساب المثلثات ومعادلات جبرية من الدرجة الثالثة بواسطة قطع المخـروط ، وهو أول من استخدم الكلمة العربية (شئ) التى رسمت فى الكتـب العلميـة الإسبانية (Xay) وما لبثت أن استبدلت بالتدريج بالحرف الأول منها (X) الذى أصبح رمزاً عالمياً للعدد المجهول ، وقد وضع الخيام تقويماً سنوياً بالغ الدقة.

ولم يتوقف بحث الخيام عند تطوير علم الجبر فقـط باعتبـاره علمـاً مستقلاً، بل اهتم بإدخال الجبر على علم حساب المثلثات ، وتمكن مـن وضـع حلول للكثير من المسائل الصعبة فى علم حساب المثلثات باستعماله المعـادلات الجبرية ذات الدرجة الثالثة والرابعة ، كما امتدت إسهامات الخيام إلى الهندسة ، فعكف على دراسة هندسة إقليدس المشروحة والمطق عليها مـن قبـل علمـاء الرياضيات المسلمين ، فأولاها عناية شديدة وابتكر برهاناً جديداً بخلاف ذلـك الذى قدمه ابن الهيثم فى برهانه على المصادرة الخامسة من مصادرات إقليدس، وكان الخيام شغوفاً بأعمال الهندسة.

ترك عمر الخيام عدداً كبيراً من المؤلفات فى شتى فروع المعرفة مـن أهمها ميزان الحكمة ، مشكلات الحساب ، البراهين على مسائل الجبر والمقابلة، المساحة ، الكون والتكليف ، الموسيقى الكبير .

وفى آخر أيامه كان يتأمل الإلهيات من الشفاء لابن سينا ، فلما وصـل إلى فصل الواجد والكثير وضع علامة بين ورقتين وقام وصلى وأوصى ولـم يأكل ولم يشرب ، فلما صلى العشاء سجد وكان يقول فى سجوده : " اللهم إنـك تعلم أنى عرفتك على مبلغ إمكانى فاغفر لى فإن معرفتى إياك وسيلتى إليك " ، وتوفى عن عمر يناهز الواحد والثمانين عاماً.

الربع الخالى ... رمال لا تنتهى

صحراء الربع الخالى هى أكبر صحراء رملية فى العالم ، تقع بالكامل فى شبه الجزيرة العربية ، وتزيد مساحتها على مساحة فرنسا إذ تمتد على مساحة تزيد على ٦٠٠ ألف كم٢ ، بطول يقارب ١٢٠٠ كم وعرض يقارب ٦٤٠ كم ، وهى تغطى المساحة ما بين عمان والإمارات العربية المتحدة وسفوح جبال اليمن ، ومن هضبة حضرموت جنوباً حتى مناطق جنوب شرق السعودية شمالاً .

وتعد صحراء الربع الخالى المكان ذو الظروف المناخية الأصعب فى العالم ، حيث تتراوح درجة الحرارة بها بين أقل من درجة التجمد ليلاً إلى أكثر من ٦٠ درجة مئوية عند الظهر ، وترتفع بها الكثبان الرملية لتصل فى بعض الأماكن إلى ٣٣٠ متراً ، وتكاد الكثير من مناطقها تخلو من الحيانين النباتية والحيوانية خاصة فى سنوات القحط ، وإذا كانت الصحراء تطلق على المناطق التى تقل كميات الأمطار الساقطة بها عن ٢٥ ملم سنوياً ، فإن صحراء الربع الخالى لا تستقبل من الأمطار حتى نصف هذه الكمية.

وتعد مساحات كبيرة من صحراء الربع الخالى غير مكتشفة بعد ، وغير مأهولة ، حتى أن البدو لا يمرون سوى بأطرافها ، وقد قام الرحالة برترام

توماس بأول رحلة موثقة إلى هذه الصحراء عام ١٩٣١ ، ثم قام عبد الله فيلبى برحلة أخرى عام ١٩٣٢ ، ثم ثيسيجر عام ١٩٤٥ ، وتمثلت كتاباتهم فى مشاهدات سجلت الجيولوجيا والحياة النباتية والحيوانية ، وحركة الإنسان بها ، ويعود لهم الفضل فى تسجيل المشاهدات الأولى التى أصبحت مصدراً أساسياً لدراسات الربع الخالى .

وقد ازداد تصحر الربع الخالى خلال الألف سنة الأخيرة ، وهو ما جعل مرور القوافل بها شبه مستحيل ، بعد أن كانت قوافل تجارة البخور تعبرها عبر طرق ومساحات تلاشت تماماً وأصبحت أرضاً قاحلة ، فقد اعتمدت مدينة " ارم ذات العماد " التى يقال أن مدينة " عبار " الحالية تضمها على هذه التجارة .

أول جغرافى رسم خريطة سليمة للعالم

هو الشريف الإدريسى ... أكبر علماء الجغرافيا المسلمين ، ولد بمدينة سبته بالمغرب ، وفيها نشأ وتعلم ثم طاف البلاد حتى نزل بصقلية ضيفاً على ملكها (روجر الثانى) ... وقد قضى شطراً من تاريخ حياته فى رسم أول خريطة سليمة للعالم بناها على القواعد العلمية الصحيحة والحقائق الفنية التى عرفت آنذاك ، والتى لا تختلف كثيراً عما هو مستخدم فى هذا العصر.

صحح الشريف الإدريسى الذى عاش بين (١١٠٠ – ١١٦٦ م) للناس والأوربيين بصفة خاصة مفاهيمهم عن العالم ، وقد استخدم الأوربيون خرائطه فى سائر الكشوف الجغرافية التى كانوا يقومون بها فى عصر النهضة ، ويتميز الإدريسى بالدقة فى حساب الأطوال والعروض لمختلف البلاد وقد استخدم فى سبيل ذلك ما أطلق عليه اسم (لوح الترسيم) وهو مشروع خريطة العالم التى رسمها فيما بعد.

وعندما أراد أن يخلّد تلك الخريطة حتى لا تتلف ، أمر له الملك روجر بأن يوضع تحت تصرفه دائرة من الفضة الخالصة تزن ٤٠٠ رطل ، فلما تم ذلك أمر العمال بأن ينقشوا عليها صور الأقاليم السبعة ببلادها وأقطارها وكل تفاصيلها ... وتشمل العالم القديم (آسيا ، أفريقيا ، أوربا) وقد ذكر الإدريسى

سبعة أقاليم ، وجعل الإقليم الأول منها يمتد من خط عرض صفر إلى ٢٣ ° درجة شمالاً ، وتلى ذلك الأقاليم الباقية بحيث يمتد الإقليم السابع من ٥٤ ° إلى ٦٣ ° درجة ، وما بعد هذه الدرجة الأخيرة منطقة غير مسكونة لكثرة البرودة ووفرة الثلوج.

ومما يذكر عن خريطة الإدريسى أنه جعل الجنوب إلى أعلى والشمال إلى أسفل على غير المألوف اليوم ، وبطبيعة الحال يكون الغرب إلى اليمين والشرق إلى اليسار.

إلى جانب هذا وضع الإدريسى مؤلفه المهم " نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق " الذى ألفه للملك روجر الثانى بناءً على طلبه ، وضمنه كل ما عرفه الأقدمون من معلومات سليمة ، كما زاد عليها ما اكتسبه هو نفسه ، وما رآه ورصده فى رحلاته ولقد ظل هذا الكتاب مرجعاً لعلماء أوربا لمدة (٣٠٠ عام) أى حتى القرن السادس عشر ، وقد احتوى الكتاب على أكثر من سبعين خريطة ... ويعتبر أعظم ما ظهر فى العصور الوسطى من الكتب العلمية.

وقد أشار الإدريسى فى كتابه هذا إلى أن بحر الظلمات (المحيط الأطلنطى الآن) يحيط بالجزر البريطانية ، وأنه من المستحيل التوغل فيه ، كما ألمح إلى وجود جزر بعيدة هى أيسلندا وما حولها ، ولكنه ذكر كذلك صعوبة الوصول إليها بسبب الضباب والظلام الكثيف الذى يخيم على هذا البحر .

الكرملين

الكرملين ويعنى (القلعة) ... بناء معمارى مهيب وإبداع هندسى فريد للغاية ، بنى فى البداية كقلعة خشبية أقامها الأمير يـورى دولجـوروكى عـام ١١٤٧م على ضفاف نهر موسكو ، ومنذ ذلك التاريخ شهد الكـرملين أحـداث موسكو حتى قضت عليه الحرائق ذات يوم ... فقام إيفان الثالث بإعادة بنائه فى القرن الخامس عشر بالأحجار بدلاً من الأخشاب واسـتدعى لـذلك مهندسـين معماريين من روسيا وإيطاليا على أساس الجمع بين تقاليد العمـارة الروسـية والهندسة المعمارية الايطالية فى عصر النهضة ... ويعبق التاريخ الكرملين فى كل مكان فهناك مجوهرات وعروش ومخادع القياصرة ، والكنائس ، والمدافع ، والأجراس القديمة ، وقاعة الأسلحة ، وغنائم الحروب .

على أن الكرملين الذى تحولت عنه الأنظار منذ انتقال السلطة إلى سان بطرسبرج حتى عادت إليه مع الثورة البلشفية عام ١٩١٧ ، لا يقتصر على مقار السلطة الروسية الرسمية فحسب بل يتسع للكثير من الكاتدرائيات ذات القبـاب الذهبية المعروفة ، ومنها كاتدرائية أوسبينسكى التى كان يـتم فيهـا تتصـيب القياصرة ، وكاتدرائية ارخانجلسك التى تضم قبو ورفات عـدد مـن قياصـرة روسيا منذ القرن السادس عشر ، إلى جانب كاتدرائية بلاجوفيشينسـكى التـى

كانت أشبه بكنيسة خاصة لعائلة القيصر ، وكانت هذه الكاتدرائيات التى تحيط بساحة الكاتدرائيات فى قلب الكرملين قد سبق وتحولت إلى متاحف أثناء سنوات الحكم الشيوعى ، ثم عادت إلى دورها الطبيعى مع مطلع سنوات البيريسترويكا فى أواخر ثمانينيات القرن الماضى .

ومع هذه الكاتدرائيات يوجد (جرس الأجراس) الذى يزن ما يزيد على مائتى طن ويبلغ ارتفاعه ما يزيد على ستة أمتار ، ومن معالم الكرملين أيضاً عدد من المتاحف الشهيرة مثل متحف السلاح الذى يضم عدداً من أشهر مقتنيات العائلة القيصرية من مجوهرات وكنوز وغنائم وتحف أجنبية وعربات حرب ، وهناك كذلك ساعة سباسكى الشهيرة .

كما تضم مبانى الكرملين قصر الكرملين الكبير الذى أقيم فى مطلع الستينيات خصيصاً كمقر لعقد مؤتمرات الحزب ، وشهد أيضاً مولد الثورة الديمقراطية التى تمثلت فى اجتماعات مؤتمر نواب الشعب عام ١٩٨٩.

ومن أشهر معالم الكرملين الساحة الحمراء التى تمتد من كاتدرائية (بوكروفسكى) أمام بوابة الكرملين فى طرفه الشرقى ، وحتى نهاية جداره من الطرف الشمالى عند مبنى المتحف التاريخى وكانت تسمى بالسوق ، حيث كان المكان بالفعل ساحة كبرى تجمع البائعين والمشترين حتى بعد تحول الاسم فى القرن السابع عشر إلى الميدان الأحمر أو الساحة الحمراء ، وكان يوجد على ضفاف نهر موسكو مرفأ تجارى ترسو فيه السفن الآتية من الجنوب محملة بالجلود والمعادن والأحجار الكريمة وغيرها من احتياجات المواطن مما جعل السوق فى إزدهار متواصل ، ومع اندلاع الثورة البلشفية عام ١٩١٧ شهدت الساحة الحمراء مجازر كبيرة ، ثم قامت الساحة الحمراء بدور ايدولوجى بعد انتقال سلطة البلاشفة إلى الكرملين فى ١٩١٨ ، ففى هذا المكان كانت تقام الاستعراضات العسكرية والتظاهرات الجماهيرية المنظمة فى الأعياد القومية

السوفيتية أثناء سنوات الحرب العالمية الثانية ، وفى ذلك الوقت كانت الجيوش تبدأ طريقها إلى الجبهة من هذا المكان ، وقد عاد الرئيس بوتين إلى استخدام الميدان الأحمر كساحة لإقامة الاستعراضات العسكرية فى المناسبات القومية والتاريخية .

ومن أهم معالم الساحة الحمراء (ضريح لينين) والتى تعود قصة إقامته إلى تاريخ وفاته فى يناير عام ١٩٢٤ عندما صدر قرار إقامة مدفن تاريخى يليق بدفن زعيم الثورة البلشفية ، وخلال ثلاثة أيام فقط صمم المعمارى شوسيف هذا المدفن الذى أعيد بناءه لاحقاً من أحجار الجرانيت وأفخر أنواع الرخام وصار منصة تقام أمامها الاستعراضات العسكرية ويعتليها فى المناسبات التاريخية والقومية زعماء الحزب والدولة.

وبالقرب من قبر لينين يوجد مكان آخر يضم الكثيرين من قادة الحزب والدولة ومنهم ستالين وبريجنيف واندروبوف وتشيرنينكو ممن تعتلى مقابرهم تماثيل نصفية بوصفهم عظماء الدرجة الأولى ، أما الآخرون من مشاهير العلماء ورواد الفضاء قد استقر رفات جثامينهم فى زجاجات وضعت فى تجويفات أعدت خصيصاً للاحتفاظ بها فى جدار الكرملين المطل على الميدان الأحمر خلف مدفن لينين ، غير أن هناك مقابر أخرى تسمى بمقابر عظماء الدرجة الثانية تقع فى أطراف موسكو على مقربة مباشرة من (دير العذارى) والذى دفن فيها خروشوف وغيره من العظماء ممن لم تكن القيادة الحزبية راضية عنهم بالدرجة التى يليق معها أن يحظوا بشرف الدفن فى الساحة الحمراء.

صلاح الدين الأيوبى

حين توفى لم يجدوا فى خزائنه شيئاً من الذهب والفضة سوى دينار واحد وسبعة وأربعين درهماً ... إنه صلاح الدين الأيوبى (١١٣٨ – ١١٩٣م) الذى غير حركة التاريخ ، وأسقط دولة كانت فى النزع الأخير ، واقام دولة حملت راية الجهاد ضد الصليبيين ، واسترد بيت المقدس بعد أن ظل أسيراً نحو قرن من الزمان .

ولد صلاح الدين الأيوبى فى تكريت فى عائلة كردية ، وقد تولى والده نجم الدين أيوب منصب والى بعلبك ، من قبل الملك عماد الدين زنكى ثم ولده نور الدين ، وكان صلاح الدين جندياً فى جيش نور الدين زنكى فى دمشق .

وقد شهدت السنوات الأخيرة من عمر الدولة الفاطمية فى مصر صراعاً محموماً بين " شاور " و " ضرغام " على منصب الوزارة ، ولم ينجح أحدهما فى حسم الصراع لمصلحته ، والإنفراد بالمنصب الكبير ، فاستعان كل منهما بقوة خارجية تعينه على تحقيق هدفه ، فاستعان ضرغام بالصليبيين ، واستعان شاور بنور الدين محمود سلطان حلب ، فلبى الفريقان الدعوة ، وبدأ سباق بينهما لاستغلال هذا الصراع كل لصالحه ، وللاستيلاء على مصر ذات الأهمية البالغة لهما فى بسط نفوذهما وسلطانهما فى تلك المنطقة.

وانتهى الصراع بالقضاء على الوزيرين المتنافسين سنة ١١٦٨ م وتولى " أسد الدين شيركوه " قائد حملة نور الدين منصب الوزارة للخليفة العاضد الفاطمى ، ثم ما لبث أن توفى شيركوه فخلفه فى الوزارة ابن اخيه صلاح الدين الذى كان فى الثانية والثلاثين من عمره .

كانت المفارقة أن يتولى صلاح الدين السنى المذهب الوزارة فى دولة شيعية ، وأن يدين فى الوقت نفسه بالولاء لنور الدين الزنكى سلطان حلب التابع لدولة الخلافة العباسية ، وتحولت مهمته من منع مصر من السقوط فى أيدى الصليبيين إلى السعى فى ردها إلى أحضان الخلافة العباسية .

ولكى ينجح صلاح الدين فى تحقيق هدفه كان عليه أن يقوى المذهب السنى فى مصر حتى يتمكن من إسقاط الدولة الفاطمية ، وإلغاء المذهب الاسماعيلى الشيعى ، واستغرقت هذه المهمة ثلاث سنوات ، لجأ فى أثناءها إلى العمل المتأنى والخطوات المحسوبة ، فعزل القضاة الشيعيين وأحل محلهم قضاة من أهل السنة ، وأنشأ عدداً من المدارس لتدريس الفقه السنى .

حتى وجد أن الفرصة المناسبة قد لاحت ، وأن الأجواء مستعدة للاعلان عن التغيير فأقدم على خطوة شجاعة حيث أعلن فى الجمعة الأولى من شهر محرم سبتمبر ١١٧١ قطع الخطبة للخليفة الفاطمى الذى كان مريضاً وملازماً للفراش وجعلها للخليفة العباسى ، فكان ذلك إيذاناً بانتهاء الدولة الفاطمية ، وبداية عصر جديد .

قضى صلاح الدين السنوات الأولى بعد سقوط الدولة الفاطمية فى تثبيت الدولة الجديدة وبسط نفوذها وهيبتها على كل أرجائها ، خاصة أن للدولة الفاطمية أنصاراً وأعواناً ساءهم سقوطها ، وأحزنهم إضعاف مذهبها الاسماعيلى فناهضوا صلاح الدين ، ودبروا المؤامرات للقضاء على الدولة الوليدة قبل أن

يشتد عودها ، وكان أشد تلك الحركات مؤامرة " عمارة اليمنى " للقضاء على صلاح الدين ، واشتعلت فتنة فى أسوان لإعادة الحكم الفاطمى ، لكن تلك الحركات باءت بالفشل ، وتمكن صلاح الدين من القضاء عليها تماماً .

وبعد وفاة " نور الدين محمود " سنة ١١٧٤م تهيأت الفرصة لصلاح الدين الذى يحكم مصر نيابة عنه ، أن يتطلع إلى ضم بلاد الشام إلى حكمه لتقوية الصف الاسلامى ، وتوحيد الجهود استعداداً للوقوف أمام الصليبيين ، وتحرير الأراضى المغتصبة من أيديهم ، فانتهز فرصة استنجاد أحد أمراء دمشق به ، فسار إلى دمشق ، وتمكن من السيطرة عليها دون قتال سنة ١١٧٤م ثم على حمص وحماة وبعلبك ، ثم أعلن استقلاله عن بيت نور الدين محمود وتبعيته للخلافة العباسية التى منحته لقب سلطان ، وأصبح حاكماً على مصر ، ثم عاود حملته على الشام سنة ١١٨٢ م ونجح فى ضم حلب وبعض المدن الشامية ، وأصبح شمال الشام كله تحت سيطرته ، وتعهد حاكم الموصل بإرسال مساعدات حربية إذا طلب منه ذلك .

واستغرق هذا العمل الشاق من أجل توحيد الجبهة الإسلامية أكثر من عشر سنوات ، وهى الفترة من سنة ١١٧٤ إلى سنة ١١٨٦ م وهى فترة لم يتفرغ فيها تماماً لحرب الصليبيين .

اطمأن الناصر صلاح الدين إلى جبهته الداخلية ، ووثق تماماً فى قوتها وتماسكها ، فانتقل إلى الخطوة الأخرى ، وانصرف بكل قوته وطاقته إلى قتال الصليبيين ، وخاض معهم سلسلة من المعارك كللت بالنصر ، ثم توج انتصاراته الرائعة عليهم فى معركة " حطين " سنة ١١٨٧ م وكانت معركة هائلة أسر فيها ملك بيت المقدس وأرناط حاكم حصن الكرك ، وغيرهما من كبار قادة الصليبيين .

وترتب على هذا النصر العظيم ، أن تهاوت المدن والقلاع الصليبية ، وتساقطت فى يد صلاح الدين ، فاستسلمت قلعة طبرية ، وسقطت عكا ، وقيسارية ، ونابلس ، وارسوف ، ويافا وبيروت وغيرها ، وأصبح الطريق ممهداً لأن يفتح بيت المقدس ، فحاصر المدينة المقدسة ، حتى استسلمت وطلبت الصلح ، ودخل صلاح الدين المدينة السليبة فى أكتوبر ١١٨٧ م ، وكان يوماً مشهوداً فى التاريخ الاسلامى .

ارتجت أوربا لاسترداد المسلمين لمدينتهم المقدسة ، وتعالت صيحات قادتهم للأخذ بالثأر والانتقام من المسلمين ، فأرسلت حملة من أقوى حملاتهم الصليبية وأكثرها عدداً وعتاداً ، وقد تألفت من ثلاثة جيوش ألمانية وفرنسية وإنجليزية ، نجح جيشان منها فى الوصول إلى موقع الأحداث ، فى حين غرق ملك ألمانيا فى أثناء عبوره نهراً بآسيا الصغرى ، وتمزق شمل جيشه .

استطاع الجيش الفرنسى بقيادة " فيليب أغسطس " أخذ مدينة عكا من المسلمين ، واستولى نظيره الإنجليزى بقيادة " ريتشارد قلب الاسد " على ساحل فلسطين من " صور " إلى " حيفا " تمهيداً لاستعادة بيت المقدس ، لكنه فشل فى ذلك ، واضطر إلى طلب الصلح ، فعقد صلح بين الطرفين ، عرف بصلح الرملة فى ٢ سبتمبر ١٢٩٢ م ولحق ريتشارد بملك فرنسا عائداً إلى بلاده .

وقد اهتم صلاح الدين ببناء الأسوار والاستحكامات والقلاع ، ومن أشهر هذه الآثار " قلعة الجبل " لتكون مقراً لحكومته ، ومعقلاً لجيشه ، وحصناً منيعاً يمكنه من الدفاع عن القاهرة ، غير أن صلاح الدين لم يتمكن من إتمام تشييدها فى عهده ، وأحاط صلاح الدين الفسطاط والعسكر وأطلال القطائع والقاهرة بسور طوله ١٥ كم ، وعرضه ثلاثة أمتار ، وتتخلله الأبراج ، ولا تزال بقاياه قائمة حتى اليوم فى جهات متفرقة .

واستقرت فى عهده النظم الإدارية ، فكان السلطان يرأس الحكومة المركزية فى العاصمة ، يليه نائب السلطان ، وهو المنصب الذى استحدثه صلاح الدين لينوب عنه فى أثناء غيابه يليه الوزير ، وكان يقوم بتنفيذ سياسات الدولة ، ويلى ذلك الدواوين .

وعنى صلاح الدين بالمؤسسات الاجتماعية التى تعين الناس وتخفف عنهم بعض عناء الحياة ، فألغى الضرائب التى كانت تفرض على الحجاج الذين يمرون بمصر ، وتعهد بالإنفاق على الفقراء والغرباء الذين يلجأون إلى المساجد، وجعل من مسجد " أحمد بن طولون " مأوى للغرباء من المغاربة .

واشتهر صلاح الدين بسماحته وجنوحه إلى السلم ، حتى صار مضرب الأمثال فى ذلك ، فقد عامل الصليبيين بعد استسلام المدينة المقدسة معاملة طيبة، وأبدى تسامحاً ظاهراً ، وكان دخول المسلمين بيت المقدس دون إراقة دماء وارتكاب آثام صفحة مشرقة ناصعة ، تناقض تماماً ما ارتكبه الصليبيون عند استيلائهم على المدينة سنة ١٠٩٩ م من الفتك بأهلها المسلمين العزل وقتل الألوف منهم .

جنكيز خان

رغم ما اتسم به تاريخه من دموية ووحشية ، وقدرة على سفك الدماء ، وحرق المدن ، وقتل الأبرياء ، إلا أن البعض يراه واحداً من أعظم غزاة العالم، فلقد استولى على عدد من البلدان أكثر مما استولى عليه نابليون أو الأسكندر الأكبر .

وكلمة جنكيز خان ليست اسماً وإنما هى لقب معناه " حاكم الحكام الأكبر" ... أما اسمه الحقيقى فهو " تيموجين بن يسوكاى بهادر " ، عاش بين عامى ١١٥٥ – ١٢٢٧ م ، ولد فى منغوليا ، كان أبوه رئيساً لقبيلة مغولية تدعى " قيات " وعرف بالشدة والبأس ، فكانت تخشاه القبائل الأخرى ، وقد سمى ابنه " تيموجين " بهذا الاسم تيمناً بمولده فى يوم انتصاره على إحدى القبائل التى كان يتنازع معها ، وتمكنه من القضاء على زعيمهم الذى كان يحمل هذا الاسم .

ولم تطل الحياة بأبيه فقد توفى تاركاً حملاً ثقيلاً ومسئولية جسيمة لـ"تيموجين" الإبن الأكبر الذى لم يتجاوز الثالثة عشرة من عمره ، وما كان ليقوى على حمل تبعات قبيلة كبيرة مثل " قيات " فانفض عنه حلفاء أبيه ، واستغلت قبيلته صغر سنه فرفضت الدخول فى طاعته على الرغم من كونه

الوريث الشرعى لرئاسة القبيلة ، والتفت حول زعيم آخر ، وفقدت أسرته الجاه والسلطان ، وهامت فى الأرض تعيش حياة قاسية ، وتذوق مرارة الجوع والفقر والحرمان .

نجحت والدة تيموجين فى أن تجمع الأسرة المستضعفة وتحث أبناءها الأربعة على الصبر والكفاح ، وتفتح لهم باب الأمل ، وتبث فيهم العزم والاصرار ، حتى صاروا شباباً أقوياء ، وبخاصة تيموجين الذى ظهرت عليه إمارات القيادة والنزوع إلى الرئاسة ، مع التمتع ببنيان قوى .

تمكن تيموجين بشجاعته من الحفاظ على مراعى أسرته ، فتحسنت أحوالها وبدأ يتوافد عليه بعض القبائل التى توسمت فيه القيادة والزعامة ، كما تمكن من إجبار المنشقين من الأتباع والأقارب على العودة إلى قبيلتهم ، ودخل فى صراع مع الرافضين للانضواء تحت قيادته حسمه لصالحه فى آخر الأمر ، حتى نجح فى أن تدين قبيلته " قيات " كلها بالولاء له ، وهو دون العشرين من عمره ، ثم واصل توسعه حتى تمكن من توحيد منغوليا بأكملها تحت سلطانه .

بعد أن استتب له الأمر اتجه إلى إصلاح الشئون الداخلية فانشأ مجلساً للحكم اسماه " قوريلتاى " سنة ١٢٠٦م ودعاه للاجتماع ، وفيه حدد لأول مرة شارات ملكه ، ونظم إمبراطوريته ، ووضع لشعبه دستوراً محكماً يسمى " قانون الياسا " لتنظيم الحياة ، بعد أن رأى أن الآداب والأعراف والتقاليد المنغولية لا تفى بمتطلبات الدولة الجديدة ، ولم تكن مدونة ، فأعاد النظر فى بعضها ، وقبل بعضها الآخر ، ورد ما رآه غير ملائم ، وتناول الدستور أموراً متعددة لتنظيم الحياة بالدولة الناشئة ، وألزم أجهزة الدولة بتطبيق بنودها والعمل بموجبها ، وشدد على معاقبة المخطئين .

اصطدم جنكيز خان بإمبراطورية الصين التى كانت تحكمها أسرة

"سونج" وكانت لا تكف عن تحريض القبائل المغولية ضد بعضها البعض ، كى ينشغلوا بأنفسهم وتأمن شرهم ، فأراد جنكيز خان أن يضع حداً لتدخل الصينيين فى شئون القبائل المغولية وفى الوقت نفسه تطلع إلى ثروة الصين وكنوزهـا ، فاشتبك معهم لأول مرة سنة ١٢١١م واستطاع أن يحرز عدداً من الانتصارات على القوات الصينية ، ويخضع البلاد الواقعة فى داخل سور الصين العظـيم ، ويعين عليها حكاماً من قبله .

ثم كرر غزو الصين مرة ثانية بعد أن حشد لذلك جموعاً هائلـة سـنة ١٢١٣ م لكنه لم يحرز نصراً حاسماً ، ثم جرت محاولة للصلح بين الطرفين ، ولكنها لم تفلح ، فعاود جنكيز خان القتال ، واستدار بجيشه الذى كان عائداً إلى بلاده ، واشتبك مع جحافل الصين ، التى لم تكن قد استعدت للقتال ، وانتصـر عليها فى معركة فاصلة ، سقطت على أثرها العاصمة بكين فى سنة ١٢١٥م ، وكان لسقوطها دوى هائل ، ونذير للممالك الإسلامية التى أوت الفـارين مـن أعدائه ، وأظهرت ما كان يتمتع به الرجل من مواهب عسـكرية فـى ميـادين الحرب والقتال .

بعد أن فرغ جنكيز خان من حربه مع الصين اتجه ببصره إلى الغرب ، وعزم على القضاء على أعدائه من قبائل " النايمان " و " الماركيت " ، وكـان "كوجلك خان بن تايانك " زعيم النايمان قد تمكن بالتعاون مع السـلطان محمـد خوارزم شاه سلطان الدولة الخوارزمية من اقتسام الدولـة القراخطانيـة سـنة ١٢١٠م وأقام دولة امتدت من بلاد التبت حتى حدود الدولة الخوارزمية ، لكنـه لم ينعم كثيراً بما أقام وأنشأ ، فقد أرسل إليه جنكيز خان جيشاً كبيراً ، يقوده أحد رجاله الأكفاء تمكن من القضاء على كوجلك وجيشه فى سنة ١٢١٨ م ، كمـا أرسل ابنه جوجى لتعقب زعيم قبيلة الماركيت فتمكن من القضاء عليه وعلـى اتباعه .

استعد جنكيز خان لحملة كبيرة على الدولة الخوارزمية ، وتحرك بجيوشه الجرارة إلى بلاد ما وراء النهر ، فلما بلغها قسم جيوشه عليها ، وتمكن بسهولة من السيطرة على المدن الكبرى مثل " أترار " و " بخارى " و "سمرقند"، ولم يجد ما كان ينتظره من مقاومة ودفاع ، وأقدم على ارتكاب ما تقشعر لهوله الأبدان من القتل والحرق والتدمير ، فقتلت جيوشه سكان مدينة أترار عن بكرة أبيهم ، وأحرقوا بخارى عن آخرها ، واستباحوا حرمة مسجدها الجامع الكبير ، وقتلوا الآلاف من سكانها الأبرياء ، وواصل الزحف بجيوشه متعقباً السلطان محمد الذى زلزل الخوف قلبه ، وفقد القدرة على المقاومة والصمود ، فظل ينتقل من بلد إلى آخر ، حتى لجأ إلى إحدى الجزر الصغيرة فى بحر قزوين ، حيث اشتد به المرض ، وتوفى سنة ١٢٢٠م.

تحمل جلال الدين منكبرتى لواء المقاومة بعد أبيه ، وكان أثبت جناناً ، وأقوى قلباً فنجح فى المقاومة ، وجمع الأتباع ، وحشد الأنصار ، وألحق الهزيمة بالمغول فى معركة " براون " سنة ١٢٢١م ، فلما سمع الناس بهذا النصر فرحوا فرحاً شديداً بعد أن استبد بهم اليأس وثارت بعض المدن على حاميتها من المغول ، وكان يمكن لهذا النصر أن تتلوه انتصارات أخرى لو خلصت النية وصدقت العزيمة ، لكن سرعان ما نشب الخلاف بين قادة جيوش جلال الدين ، وانسحب أحدهم بمن معه غير مدرك عظم المسئولية ، فانهار حلم الدفاع وتهاوى جلال الدين أمام جحافل المغول ، وتوالت الهزائم بعدما خارت العزائم ، واضطر جلال الدين إلى الانسحاب والفرار إلى الهند .

وعندما أطمأن جنكيز خان إلى ما حقق عاد إلى منغوليا لاخماد ثورة قامت ضده هناك وتمكن من إخمادها ... ثم توفى بالقرب من مدينة " تس جو " ودفن فى منغوليا ، وخلفه على الإمبراطورية ابنه أوكتاى .